الفن ذائقة وأخلاق أولاً!

«أم كلثوم ناقدة أدبية ممتازة»، هذه العبارة سمعتها من فحول الشعراء. فقد كانت تقرأ القصيدة مرة واحدة، فتعرف ما فيها من جمال، أو ضعف في المعنى والمبنى. فإذا أعذبها الشعر نقلت نفسها الى موضع السامع، هي المغنية الكبيرة، وأخذت تغربل كلمات القصيدة، كما يفعل الناقد الحصيف، وكثيرا ما كانت تستعين بأحمد رامي، أو أحمد شوقي أحيانا، على تغيير ألفاظ لم تعجبها، أو شطرِ بيت لا يلائم النغم. وهناك عدد لا يستهان به من القصائد التي شكّلها التحوير والتبديل، فجاءت على ما أرادت سيدة الغناء أن تجيء. ومن القصائد التي أصابها التحوير قصيدة «هذه ليلتي» للشاعر جورج جرداق.

وكانت أم كلثوم، على نقيض كثُر من فناني اليوم وفناناتهم، في منتهى الرصانة والرزانة والوقار، ولم تكن على علو مقامها، وبُعد صيتها، وذيوع شهرتها المستحقة، على شيء من الكبرياء، بل كانت في منتهى اللطف تفرض احترامها على الجميع، وتجيد إجادة بارعة الحديث في الأدب والتاريخ والاجتماع، وإذا جاءتها نكتة لطيفة مؤاتية، روتها بطريقة محببة.

هناك تفاعل واجب بين الأداء الفني على العموم من جهة والمخزون الجمالي والأخلاقي لدى المتفننين من جهة ثانية. فأين نحن منه في معظم وسائل إعلامنا السائدة حيث غلبت الصورة والأنوار الباهرة؟!

د. جهاد نعمان

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه